

إلى حدّ تستعصي معه على الانتظام، فإن صحّ ذلك أفلا تكون تلك الغزارة نفسها قد سببها عدم تبلور مفهوم الاختصاص عند العرب إذ يبدو أنّ المقتضيات الظرفية التي حفّت بنشأة العلوم عندهم قد حتمت ترابط مشاعب المعرفة ترابطاً يتنافى ومفهوم الاختصاص؟ أم هل إنّ تلك الظاهرة تعزى إلى عدم تأصل سنن التأليف عند العرب إذ تميّزت حضارتهم بكونها حضارة لفظية دأبت على عبور قنوات الخطاب الشفويّ حتّى أصبحت تأبى الامتثال لمقتضيات التقيّد المكتوب ممّا جعلهم يعتبرون تذكّر المتكلم لمحور أوّل حديثه مقياساً من مقاييس براعة الخطيب (البيان ١-٣٣٩)، فيكون الجاحظ عندئذ مجسماً لفترة كان التراث العربيّ فيها يرغم شيئاً فشيئاً على عبور قنوات الكتابة والتّسجيل، وهو ما يفسّر دفاع الجاحظ طويلاً عن «الكتاب» كفكرة مجردة تقابل مفهوم المشافهة وذلك على امتداد الجزء الأوّل من كتاب الحيوان.

لعلّ ذوي الاختصاص من مؤرّخين لخصائص حضارة العرب، ودارسين لمميّزات التّفكير عندهم، وباحثين في مقومات نشأة علومهم، يجيبوننا يوماً عن هذه التساؤلات التي هي من مشمولات البحث المعرفيّ، وستوقفنا تلك الأبحاث على عديد الحقائق التي جازفنا برسم شكلها البيانيّ، وستطلّعنا عما به نعرف كيف كان الجاحظ يفكّر وهو يؤلّف في الأدب، وكيف كان يؤلّف وهو يفكّر في الأدب، ولكننا من موقعنا المعرفيّ المحدّد لا نطمئنّ إلى الرّائج من التّفسيّرات في شأن مفهوم الأدب عند الجاحظ، فالأحكام المتناقلة توهم أنّ صورة الكتاب من حيث هو فكرة مجردة ومدلول خالص قد تبلورت